شواهد تاريخية على
العلاقات الودية بين الصين والبلدان العربية

– لمحة عن المكتشفات المتعلقة بالمواصلات البحرية فى مرفأ تشيوانتشو

بقلم : يه ون تشنغ

تعود الاتصالات الوديـــة بين الشعب الصينـــى والشعـــوب العربية الى عهد بعيـــد . وترجع التبادلات الاقتصاديـــة والثقافية المتعددة الجوانب عن طريق البحر " طريق البخور" الى اكثر من الف سنة بين الشعب الصينى والشعوب العربية . ومن الادلة الهامة على هذا انه فى اواخر عام ١٩٧٣ انتشلت سفينة من قاع البحر قرب مرفأ هوتشو فى خليج تشيوانتشو . ووجد العلماء انها صنعت فى اســـرة ســـونغ الملكيـــة (عام ٩٦٠ – ١٢٧٩م) . ووجدت فيها كميات هائلة من العطريات والادوية وغير ذلك . والى جانب ذلك ، تحتفظ حتى يومنا الحاضر مدينة تشيوانتشو بعدد غير قليل من المكتشفات والآثار القديمة من هذا النوع .

كانت تشيوانتشو مرفأ مشهورا خاصا بالمواصلات البحرية الخارجية فى الصين القديمة . وقد سجلت الوثائق التاريخية المتعلقة بهذا فى عهد اسرة المملكة الجنوبية (عام ٤٢٠ – ٥٨٩م) . اما فى عهد اسرة تانغ الملكية (عام ٦١٨ – ٩٠٧م) فقد بدأ التجار العرب يتوافدون على مرفأ تشيوانتشو . ونمت التجارة البحرية بين الصين فى اسرة تانغ الملكية شرقا و" داشى " (الدول العربية حاليا) غربا . وقد تمكنت الصين آنذاك من صنع السفن الضخمة الحجم والكبيرة الحمولة والقوية المقاومة للرياح والتى تبحر الى المرافىء على طول السواحل من عمان وبلاد الفرس والبحرين . كما كانت السفن التجارية العربية تبحر مباشرة الى المرافىء الصينية مثلا قوانغتشو وتشيوانتشو الخ .

وهكذا توافد العرب على تشيوانتشو بالتتابع عبر هذا الطريق البحرى . وكان بعضهم يعمل فى التجارة وبعضهم يبشر بالاسلام وما زالت آثارهم باقية حتى الآن . وعلى سبيل المثال حضر مبشران مسلمان عربيان الى تشيوانتشو لنشر مبادىء الاسلام وعندما توفيا دفنا فى جبل لينغشان (المقبرة المقدسة حاليا) بمدينة تشيوانتشو . وفى عام ١٩٦٥ اكتشف شاهد لقبر قديم فى تشيوانتشو نقشت عليه باللغة العربية فى عام ٦٥١ م لاسرة تانغ الملكية العبارة التالية : "هذا قبر حسين بن محمد القلاطى رحمه الله ، وقد توفى فى ربيع الاول سنة ٢٩ هـ . " وهناك آراء ترجح ان هذا الرجل كان مسلما عربيا يقيم فى مدينة تشيوانتشو ودفن فى تشيوانتشو . ووفرت هذه المقبرة معلومات حية فى دراسة الاتصالات الودية بين الصين والدول العربية فى عهد اسرة تانغ الملكية .

وفى عهد اسرة سونغ الملكية (عام ٩٦٠ – ١٢٧٩م) اصبحت تشيوانتشو احد المرافىء المشهورة فى الصين القديمة اذ تدفقت موجات من التجار بما فيهم العرب على قوانغتشو وتشيوانتشو . وفى سنة ١٠٨٧م انشئت فى تشيوانتشو دائرة حكومية مسؤولة عن التجارة والملاحة وكان عملها " يتعلق باستقبال الضيوف من

شاهد لقبر قديم نحتت عليه العبارة العربيـــة ، وقد تم اكتشافه فى مدينة تشيوانتشو عام ١٩٦٥

٢٦ يونيو ١٩٨٠

وراء البحار وتبادل البضائع معهم" (نقلا عن معلومات مأخوذة من "تاريخ اسرة سونغ") ، وقد عرفت هذه الدائرة بأنها كانت تحترم عادات وتقاليد الاجانب المقيمين والتجار الوافدين وكانت تضمن لهم حرية التجارة والتبشير بالاديان .

وخصصت حكومة اسرة سونغ الملكية للتجار العرب وغيرهم الذين اتوا الى تشيوانتشو فندقا اطلقت عليه اسم "فان فانغ" (معناه فندق الزوار الاجانب) . فمثلا كان السيرافى احد كبار التجار العرب لبيع العطارة يقيم فى فندق من هذا النوع فى جنوب مدينة تشيوانتشو . وكان سلوباتشلى التاجر الهندى وابنه ينزلان فى فندق من هذا النوع ايضا فى جنوبى تشيوانتشو . (نقلا عن المجلد الاول من "السجلات عن احوال التجار الاجانب") .

وكان هؤلاء يزورون تشيوانتشو اما للتجارة او للتبشير . كما استقر بعضهم فيها . وما زالت آثارهم ومخلفاتهم باقية حتى الآن فى مدينة تشيوانتشو وضواحيها . ومسجد تشينغ جينغ فى تشيوانتشو على سبيل المثال هو احد المساجد الاسلامية المشهورة وبناه بعض العرب فى عام ١١٠٩م . ويعد من اقدم المساجد الاسلامية فى الصين . وهو الآن من اهم الآثار القديمة التى تحميها دائرة الآثار فى الصين ببالغ الاهتمام . حقا ان هذا المسجد هو دليل تاريخى على الاتصالات الودية والتبادلات الثقافية بين الصين والبلدان العربية كما هو يجسد الجهد المشترك بين الشعب الصينى والشعوب العربية .

وشواهد القبور التى تم اكتشافها منذ عام ١٩٦٥ فى مدينة تشيوانتشو وضواحيها هى ايضا من الآثار القديمة المتعلقة باستيطان العرب فى تلك المدينة ، وقد كتب على هذه الشواهد "فان كه مو" (تعنى "ضريح زائر اجنبى") وضريحا "السيد الاجل" و"البخارى" ، وهناك شواهد اخرى نحتت عليها كلمات باللغة العربية . ومن المرجح ان هذه الشواهد هى ادلة عامة على المقابر التى دفن فيها العرب فى تشيوانتشو فى عهد اسرتى سونغ ويوان الملكيتين . واهم ما فيها يدل على كثرة عدد العرب والاجانب الذين جاؤوا الى تشيوانتشو للتجارة والتبشير بالاديان وتوفوا فيها . وجدير بالذكر ان العرب وغيرهم من الاجانب الذين اقاموا فى تشيوانتشو فى عهد اسرتى سونغ ويوان الملكيتين وتوفوا فيها لهم مقابرهم الخاصة ، وعلى سبيل المثال فان "السيرافى" احد كبار التجار العرب اسس مقبرة فى ضاحية تشيوانتشو الشرقية ودفن هو فيها كما دفن فيها غيره من العرب . وهذا واحد من الامثلة الملموسة .

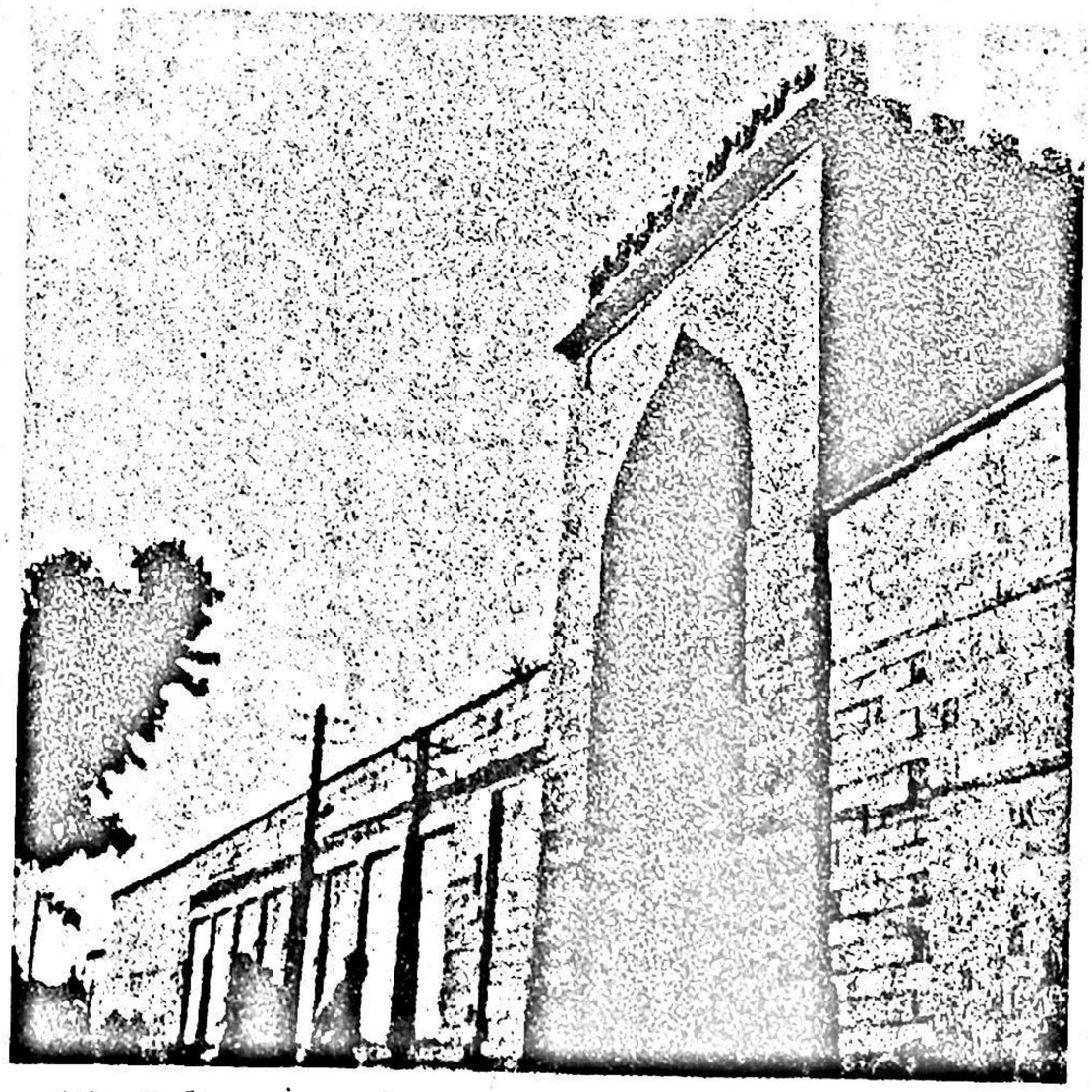

مسجد تشينغ جينغ الذى بناه بعض العرب فى مدينة تشيوانتشو عام ١١٠٩ يعد من اقدم المساجد المشهورة فى الصين

وفى اسرة سونغ الجنوبية (عام ١١٢٧ - ١٢٧٩م) ، تطورت المواصلات البحرية بين الصين والدول العربية باستمرار . وخلال الـ ٦٠ سنة بين عامى ١١٦٥ - ١٢٢٥م تركزت التجارة البحرية فى بحر الصين الجنوبى فى مدينتى تشيوانتشو وقوانغتشو . وفى ذلك الوقت كانت الاسرة الحاكمة تشجع التجار الاجانب فى تجارتهم مع الصين ، كما اطلقت عليهم الالقاب او عينتهم فى بعض المناصب الحكومية ، وعلى سبيل المثال فان التاجر العربى ابو روشين باع عطارته فى الصين بثمن بلغ ٣٠٠ الف مين (كل "مين" يساوى ١٠٠٠ "ون" من العملة النحاسية ، و الـ "ون" عملة نقدية صينية قديمة) . اما تساى جينغ فانغ احد كبار الموظفين للمنظمة المسؤولة فى التجارة البحرية فقد جنى ارباحا بلغت ٩٨٠ الف مين ("تاريخ اسرة سونغ" ، المجلد الـ ١٨٥) . هذا يوضح ان تجارة العرب فى البخور لقيت رواجا عظيما فى الصين ، كما ان حكومة اسرة سونغ الملكية شجعت هذه التجارة وقدمت مكافآت مالية وعينية للتجار . وكان ابو روشين التاجر العربى هو ابرز الشخصيات واكبر تجار العطور فى ذلك الوقت فى مرفأ تشيوانتشو .

ويضاف الى ذلك العربى ابو شوقى وقد تولى منصب المحافظ فى منطقتى فوجيان وجيانغشى وكان مسؤولا عن شؤون التجارة البحرية فى مقاطعتى فوجيان وقوانغدونغ . وفى اواخر اسرة سونغ الملكية تولى رئاسة دائرة التجارة والملاحة فى تشيوانتشو لمدة ٣٠ سنة . والى جانب ذلك مارس احيانا بنفسه التجارة البحرية . ولهذا لعب دورا ايجابيا فى دعم التبادلات بين الصين ودول آسيا الوسطى .

وسارت اسرة يوان الملكية على نهج اسرة سونغ . وانشأت دائرة التجارة والملاحة فى مدينة تشيوانتشو فى عام ١٢٧٧ وشجعت مرارا وتكرارا التجار الاجانب فى عملهم . مثلا ذكر

« تاريخ اسرة يوان » : " فى اغسطس عام ١٢٧٨م ، ان الامبراطور قد ارسل خطابا الى سوه دو وابى شوقى الحاكمين قال فيه :"اخبرا التجار الاجانب الذين اتوا من الدول الواقعة فى غرب الصين بأن كل من يزور القصر سأقابله بأدب ، اما اذا ارادوا التجارة فيمكنهم ان يفعلوا ذلك بحرية ودون قيد." هذا يدل على ان اسرة يوان الملكية كانت تولى التجارة البحرية اهتماما بالغا . ومن بين التجار الذين جاءوا الى الصين فى ذلك الوقت مصريون ومغاربة وغيرهم من العرب .

وكانت المواصلات بين الصين والدول العربية فى عهد اسرة يوان الملكية فى اوج ازدهارها . واصبح مرفأ تشيوانتشو احد المرافىء الكبيرة فى الشرق وكان يربط الصين بالدول الافروآسيوية . كما ورد فى « رحلات ماركوبولو» : " جئنا الى مرفأ تشيتونغ (تشيوانتشو) الكبير والمزدهر . . . ووجدنا ان جميع السفن الهندية كانت ترسو هنا وحملت فيها بضائع ثمينة للغاية واحجار كريمة نفيسة جدا وكثير من اللآلىء الكبيرة والجميلة . ولخصنا كل ما حدث فى جملة واحدة : ان هذا المرفأ التجارى زاد حجم التبادلات التجارية فى البضائع والاحجار الكريمة واللآلىء زيادة عظيمة لم يحظ بها مرفأ آخر . واقول لكم بصورة جدية ، لو كانت هناك سفينة حاملة للفلفل ترسو فى الاسكندرية او المرافىء الاخرى للدول المسيحية فان مائة سفينة ترسو فى مرفأ تشيوانتشو ، علما بأن هذا المرفأ هو احد اكبر مرفأيين فى العالم . " كما ذكرت «رحلات ابن بطوطة » : "ان مرفأ تشيوانتشو من اكبر المرافىء فى العالم حتى يمكن القول بأنه اكبر المرافىء فى العالم . قد شاهدت انا اكثر من مائة سفينة شراعية كبيرة ترسو فيه . اما القوارب الصغيرة فلا تعد ولا تحصى ." هذا وقد شهد حجم التبادل التجارى فى مرفأ تشيوانتشو تطورا لم يسبق له مثيل فى المرافىء الاخرى .

وتطورت وازدهرت المواصلات البحرية بين الصين والدول العربية ، الامر الذى دفع التجارة الاقتصادية والتبادلات الثقافية والصداقة الودية بين الشعب الصينى والشعوب العربية . يعتبر مسجد تشينغ جينغ والسفينة المنتشلة من قاع البحر والتى صنعت فى اسرة سونغ الملكية خلال السنوات الاخيرة ادلة تاريخية على المواصلات البحرية والاتصالات الودية بين الشعب الصينى والشعوب العربية .